

دعوة سيدنا محمد ﷺ

ومنهجه فيها ومن دعا إلى الله بعده من الصحابة
والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين

- دعوة سيدنا محمد ﷺ . . ومهامها
- الدعوة في عهد الصحابة وما بعده
- التجديد والمجددون
- الدعوة واللغة العربية
- بين الدعوة و الدعاية

obeikandi.com

الفصل الأول

دعوة سيدنا محمد ﷺ

لقد أرسل الله سيدنا محمد بن عبد الله العربي إلى العالم أجمع ، وأنزل عليه القرآن رحمة للعالمين .

وكانت المهمات التي جاء من أجلها عديدة ، ويمكن حصرها في خمس :

المهمة الأولى : إصلاح الأوضاع العالمية الفاسدة التي كانت قبل مبعثه .

المهمة الثانية : جمع رسالات السماء في دائرة واحدة متماسكة .

المهمة الثالثة : وفاء عهد الله لفرع إسماعيل كفرع إسرائيل .

المهمة الرابعة : دعوة أهل الكتاب من الضلال إلى الإيمان .

المهمة الخامسة : تتميم مكارم الأخلاق .

وإليك بيان ذلك بالتفصيل :

● المهمة الأولى : إصلاح العالم

لقد طغت الوثنية على التوحيد في كل مكان ، حتى صارت كأنها هي الأصل في الأديان .

أكثر أهل بلاد الفرس والصين من ديار النيران التي كانوا يعبدونها ويقدمون لها أغلى ما لديهم من النفس والنفيس .

وانتشرت عبادة الأجرام السماوية في بلاد اليونان والرومان ومستعمراتها ، واستأثر إمبراطور الروم بعبادة الشمس ، وترك للملأ من قومه عبادة الكواكب الأخرى .

وتفنن العرب في عبادة الأصنام والأوثان ، ونصبوا تماثيل الصالحين من الأسلاف وعبدوها في الحضر ونقلوا معهم أحجار مكة ليطوفوا حولها في السفر كما يطوفون بالكعبة في الحضر .

وأخذ أحبار اليهود إلى الأرض وأضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات ، واقتنوا زهرات الحياة الدنيا ، وزخارفها وآثروا الذهب والفضة والجواهر ، ونسوا حظاً مما ذكروا به في التوراة .

وانقطع بعض النصارى إلى الرهينة التي ابتدعوها ولم تكتب عليهم ، فما رعوها حق رعايتها .

ونصب آخرون منهم تمثال المسيح وأمه وروح القدس في الكنائس وعبدوها من دون الله الواحد القهار .

وهكذا عم الفساد بين العباد في سائر البلاد ، وصار الظلم جائزاً في البر والبحر ، وكان القوي يشبع شهوته في الاستبداد بالرأي ، وأحل الملوك استعباد الرعايا ، وكان الغني يقضي مآربه من استغلال الحرث والنسل ، واستفزاز الفقير ، لا وازع ولا رادع ، ولا شرط ولا قيد ، ولا شريعة ولا قانون يحمي المظلوم .

هكذا كان العالم كله قبل أن يبعث الله محمداً ﷺ ، رسولاً لينقذ العالم من هذه الموبقات ، وليخرج الناس من الظلمات إلى النور ، ويهديهم إلى صراط مستقيم .

● المهمة الثانية : جمع رسالات السماء في دائرة واحدة

كان المفروض أن يبعث الله رسولاً واحداً إلى العالم ، كما كان يبعث إلى الرسل والأنبياء ملكاً واحداً ، وهو جبريل عليه السلام .

ولكن العقل البشري لم ينضج بعد ، ولم يبلغ ذلك المستوى من الفهم والإدراك ، لذلك كان الله يبعث إلى كل أمة رسولاً مناسباً للبيئة . قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ (إبراهيم: ٤) .

ولما استعد العالم لفهم الوحدة الإنسانية ونضج العقل البشري ، وبلغت الحضارة أوجها استعدت الدنيا كلها أن تصير بلداً واحداً ، بعث الله محمداً ﷺ إلى العالم ، وأنزل عليه كتاباً قيماً يصلح ما فسد من أحوال الأمم ، ويدعو أصحاب الأديان السماوية إلى دين الحق ، وهو دين الإسلام .

﴿ يٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَآبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَآبِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ ۖ قَدْ جَآءَكُمْ مِنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَآبٌ مُّبِينٌ ﴿١﴾ يَهْدِي بِهُ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ ٱلسَّلَآمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَآتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾

(المائدة: ١٥، ١٦) .

﴿ قُلْ يٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَآبِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا ٱلتَّوْرَةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ (المائدة: ٦٨) .

﴿ قُلْ يٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَآبِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾

(آل عمران: ٦٤) .

دعا النبي محمد ﷺ الناس جميعاً إلى عبادة الله وحده ، قال تعالى :
﴿ يٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ (الأعراف: ١٥٨) .

﴿ يٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَاشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِّن ٱلثَّمَرَآتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلّٰهِ أَندَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

(البقرة: ٢١، ٢٢) .

دعا النبي محمد ﷺ جميع ملوك الأرض إلى أن الملك كله لله الواحد القهار .
لم يجابه النبي إبراهيم - أبو الأنبياء صلى الله عليه وعليهم أجمعين - غير ملك واحد من الملوك الجبابرة ، وهو نمرود ، ملك الكلدانيين .

ولم يجابه النبي موسى ﷺ غير ملك واحد ، وهو فرعون ملك مصر .
وعدل النبي عيسى عن مجابهة قيصر وقال كما جاء في أناجيلهم الحاضرة :
« أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله » .

ولما جاء النبي محمد ﷺ واجه ملوك الدنيا جميعاً ، ودعا ملك الروم ،
والفرس ، والحبشة ، ومصر ، وسائر ملوك العرب إلى عبادة الله تعالى ،
وأعلمهم أن الله تعالى هو مالك الأرض والسماوات ، وما فيهما وما بينهما ، وأن
بيده ملكوت كل شيء .

وأن الملك بيد الله يؤتیه من يشاء . كما في عدة آيات كثيرة ، اقرأ منها قوله
تعالى : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ يُؤْتِي الْمَلِكَ مَن تَشَاءُ وَتَنَزِعُ الْمَلِكَ مِمَّن
تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

(آل عمران: ٢٦) .

فجاءت رسالة النبي محمد ﷺ موسوعة شاملة لسائر الرسالات السابقة ،
وكان القرآن الذي جاء به مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيئاً عليه ^(١)
لا يوجد في كتب الأديان السماوية كتاب استوعب أخبار الرسل والأنبياء كما
فعل القرآن ، وقد اهتم بأخبارهم تحت عنوان قصص الأنبياء .

لم يهتم اليهود والنصارى بأنبياء غير بني إسرائيل ، وقلما ذكروا في التوراة
والإنجيل أسماء أنبياء الأمم الأخرى ، إلا إذا كان لابد من ذكرهم لشدة تعلقهم
بتاريخهم ، كسيدنا نوح ، وإبراهيم ، ولوط ، ويقول الأستاذ العقاد : أن الأنبياء
العرب المذكورين في التوراة أربعة وهم : ملكي صادق ، وأيوب ، وبلعام ،
وشعيب الذي يسمونه يشرون ^(٢) .

(١) أي مصححاً للأخطاء التي نجمت من تحريف المحرفين .

(٢) حقائق الإسلام ص ٦٣ ، ولعل الذي سموه يشرون هو موسى عليه السلام أو الخضر
معلمه .

أما النبي هود وصالح وغيرهما فلم يرد ذكرهم في التوراة والإنجيل ، فقد قص الله أخبار هؤلاء الأنبياء من بني إسرائيل وغيرهم في القرآن ، ثم أخبر الله تعالى أنه بعث في كل أمة رسولا ﴿ وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾

(فاطر: ٢٤) .

كل ذلك ربط لحلقات الأنبياء جملة في سلسلة واحدة ، وقال بعد إكمال هذه الرسالة : ﴿ الْيَوْمَ يَيسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾

(المائدة: ٣) .

● المهمة الثالثة : وفاء عهد الله لفرع إسماعيل كفرع إسرائيل

العرب أبناء إسماعيل إخوة العبرانيين أبناء إسرائيل (يعقوب بن إسحاق) وفي العهد القديم من التوراة المبدلة بقى الكلام على أن الله تعالى وعد لإسماعيل وإسحاق معاً ، حيث قال في سفر التكوين ، (الإصحاح السابع عشر) : وقال إبراهيم لله : « ليت إسماعيل يعيش أمامك! فقال الله : بل سارة امرأتك ، تلد لك ابناً وتدعو اسمه إسحاق ، وأقيم عهدي معه ، عهداً أبدياً لنسله من بعده ، وأما إسماعيل فقد سمعت لك فيه ، ها أنا أباركه وأثمره وأكثره كثيراً جداً ، اثنى عشر رئيساً وأجعل له أمة كبيرة » .

لقد أنجز الله وعده لنسل إسحاق ، إذ جعل فيهم أنبياء وجعلهم ملوكاً وآتاهم ﴿ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴾ (المائدة: ٢٠)^(١) كما صرح به القرآن .

أما وعد الله لإسماعيل بأنه يباركه ويثمره ، ويكثره ويجعله أمة كثيرة ، فلم يتم إلا بعد ظهور النبي محمد ﷺ .

لقد سكن إسماعيل في بركة فاران ، وهي أرض الحجاز ، وأخذت له أمة زوجة من أرض مصر .

(١) بلفظ : ﴿ وَءَاتَيْنَاكُمْ ... ﴾ .

وكان إسماعيل وأبناؤه يعيشون هناك في شبه انعزال عن العالم ، وكان اليهود يسمونهم أميين .

وقد مكثوا نحو ألفي عام ، ولم يبعث الله فيهم نبياً واحداً ، على حين أن الأنبياء في بني إسرائيل بلغوا ألوفاً ، كما جاء في إحدى الروايات المنسوبة إلى سيدنا محمد ﷺ .

وقال القرآن : ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾

(الجمعة: ٢) .

وقال أيضاً : ﴿ يَسَ ۖ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ۖ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۖ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۖ تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ۖ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴾ (يس: ١-٦) .

ولقد أصلح النبي ﷺ حالة العرب ، ورفع من شأنهم ، ووحد صفوفهم ، وجمع كلمتهم ، وأظهر دولتهم ، حتى لحقوا بالسابقين من بني إسرائيل وفاقوهم .

● المهمة الرابعة : رد أهل الكتاب من الضلال إلى الهداية

لقد قرر القرآن الكريم أن الله تعالى أنزل على النبي موسى التوراة فيها هدى ونور ، وأنزل على النبي عيسى الإنجيل فيه هدى ونور ومصدقاً لما بين يديه من التوراة ، ثم أنزل القرآن الكريم مصدقاً لما بين يديه من التوراة والإنجيل ومهيماً عليهما ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ﴾ (المائدة: ٤٨) .

وقرر القرآن الكريم أن اليهود يحرفون الكلم عن مواضعه ، ويكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هو من عند الله . قال تعالى : ﴿ افْتَطَمَعُونَ أَنْ

يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ خَرَجُوا مِنْ بَعْثٍ مَا
عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿البقرة: ٧٥﴾ .

وقوله : ﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ
اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِّمَّا
يَكْسِبُونَ ﴾ (البقرة: ٧٩) .

لقد نهى القرآن عن مجادلة أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن ، وذلك في
قوله : ﴿ وَلَا تَجْدِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ (العنكبوت: ٤٦) .

وفي قوله : ﴿ وَلَا تَجْدِلُوا ﴾ نهى عن مبادرتهم بالجدال في نصوص وطقوس
دينهم ، وفي قوله : ﴿ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ استثناء يجيز الرد عليهم ، إذا
بدأونا بالجدال فليكن الرد عليهم بالتي هي أحسن حتى لا نتعرض لنبيهم
ولا لكتابهم ، وفي هذا المعنى حديث : « لا تصدقوا أهل الكتاب
ولا تكذبوهم »^(١) .

واليهود هم أول من بادأوا النبي محمدًا ﷺ بالجدال ، وذلك لما هاجر
النبي ﷺ إلى المدينة المنورة صار يستقبل بيت المقدس في صلاته ستة عشر
شهرًا ، تأكيدًا للأخوة الدينية بينه وبينهم ، وتأليفًا لقلوبهم ، ولكنهم صاروا
يستهزئون به ، ويقولون : إنه يتقرب إليهم بالتدريج ، فجعل النبي ﷺ ينتظر أمر
ربه في توجيهه إلى قبلة معينة ، لهذا قال تعالى : ﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي
السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ
مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾ (البقرة: ١٤٤) .

فتحول النبي ﷺ إلى الكعبة ، فصار اليهود ينكرون عليه النسخ والبدل ، فرد
عليهم القرآن بقوله : ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ
تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (البقرة: ١٠٦) .

(١) نص الحديث كما رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه : « لا تصدقوا أهل
الكتاب ، ولا تكذبوهم ، وقولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا » . . . إلخ الآية .

وقوله : ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّيْنَاهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الشَّرْقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (البقرة: ١٤٢) .

ومن عندهم وجدالهم أنهم قالوا : لو جاء النبي محمد ﷺ بمثل المعجزات التي جاء بها موسى لآمنوا ، فرد الله عليهم بقوله : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى أُولَئِكَ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ ﴾ (القصص: ٤٨) .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ (١٧) وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ (١٨) وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ (البقرة: ٨٧-٨٩) .

ومن تعنتهم أنهم قالوا : إنهم شعب الله المختار عند الله ، في الدنيا والآخرة ، فرد الله عليهم بقوله : ﴿ قُلْ يَتَأَيُّمُ الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٢١) وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ (الجمعة: ٦، ٧) .

وبقوله : ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتِ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ (المائدة: ٦٠) .

أما النصارى فقد جادلوا النبي محمداً ﷺ على ألوهية عيسى ، أو على كونه ابن الله ، أو ثالث ثلاثة ، وكان يجادلهم بالوحي كما في القرآن : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَأُمُّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا خَلَقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

﴿١٧﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّهُ ۖ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ﴿١٨﴾

(المائدة: ١٧-١٨) .

وقوله : ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ ۖ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (آل عمران: ٥٩) .

ورد القرآن على النصارى في مسألة صلب المسيح بقوله : ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ ﴿١٧﴾ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٨﴾

(النساء: ١٥٧-١٥٨) .

● المهمة الخامسة : تتميم مكارم الأخلاق

من المهمات التي بعث الله نبيه محمداً ﷺ لتكميلها ، مكارم الأخلاق ومحاسن الآداب التي أدبه الله بها في القرآن ، وجعل فيه : ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ (الأحزاب: ٢١) .

قال النبي عليه الصلاة والسلام : «أدبني ربي فأحسن تأديبي» ^(١) قال هذا لتفسير ثناء القرآن عليه بقوله : ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم: ٤) .

قال رسول الله ﷺ : «مكارم الأخلاق عشرة : تكون في الرجل ولا تكون في ابنه ، وتكون في الابن ولا تكون في الأب ، وتكون في العبد ولا تكون في سيده ، يقسمها الله لمن أراد به السعادة : صدق الحديث ، وصدق البأس ، وإعطاء السائل ، والمكافأة بالصنائع ، وحفظ الأمانة ، وصلة الرحم ، والتذم للجار . والتذم للصاحب ، وإقراء الضيف ، ورأسهن الحياء» ^(٢) .

وثبت في السير أنه لما أتى بسبايا طيء ، وقعت جارية في السبي ، فقالت : يا محمد ﷺ إن رأيت أن تخلي عني ولا تشمت بي أحياء العرب ، فإني بنت

(١) رواه ابن السمعاني في أدب الإملاء عن ابن مسعود .

(٢) رواه الحكيم والبيهقي عن أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها .

سيد قومي ، وإن أبي كان يحمي الذمار ، ويفك العاني ، ويشبع الجائع ،
ويطعم الطعام ، ويفشي السلام ، ولم يرد طالب حاجة قط . أنا ابنة حاتم
الطائي .

فقال رسول الله ﷺ : « يا جارية ، هذه صفة المؤمنين حقاً ، لو كان أبوك
مسلماً لترحمنا عليه خلوا عنها فإن أباهما كان يحب مكارم الأخلاق ، وإن الله
يحب مكارم الأخلاق » .

وإذا كانت مكارم الأخلاق تنتهي عند حدود ما ذكرت الجارية أو الحكيم ،
فإن النبي عليه الصلاة والسلام الذي جاء ليتمم مكارم الأخلاق قد أوصلها إلى
نحو أربعين ، كما أورد الغزالي في الإحياء عن معاذ بن جبل : « أن الله حف
الإسلام بمكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال ، ومن ذلك : حسن المعاشرة وكرم
الصنيعة ، ولين الجانب ، وبذل المعروف ، وإطعام الطعام ، وإفشاء السلام ،
وعيادة المريض المسلم برأ كان أو فاجراً ، وتشيع جنازة المسلم ، وحسن
الجوار لمن جاورت : مسلماً كان أو كافراً ، وتوقير ذي الشيبة ، وإجابة الطعام ،
والدعاء عليه ، والإصلاح بين الناس ، والجود ، والكرم ، والسماحة ، والابتداء
بالسلام ، وكظم الغيظ ، والعفو عن الناس ، واجتناب ما حرمه الإسلام من اللهو
والباطل ، والغناء والمعازف كلها ، واجتناب كل ذي وتر ، وكل ذي دخل ،
والغيبة ، والكذب ، والبخل ، والخديعة ، والنميمة ، وسوء ذات البين ، وقطيعة
الأرحام ، وسوء الخلق ، والتكبر ، والاختيال ، والاستطالة ، والبذخ ، والفحش ،
والتفحش ، والحقد ، والحسد ، والطيرة ، والبغي ، والعدوان ، والظلم » .

ومثله ما رواه البيهقي في الزهد ، وأبو نعيم في الحلية : قال معاذ بن جبل
رضي الله عنه : أوصاني رسول الله ﷺ فقال : « يا معاذ ، أوصيك باتقاء الله
وصديق الحديث ، والوفاء بالعهد ، وأداء الأمانة ، وترك الخيانة ، وحفظ الجار ،
ورحمة اليتيم ، ولين الجانب ، وبذل السلام ، وسنن العمل ، وقصر الأمل ،
ولزوم الإيمان ، والتفقه في القرآن ، وحب الآخرة ، والجزع من الحساب ،
وخفض الجناح » .

وأنهاك : أن تسب حكيماً ، وتكذب صادقاً ، أو تطيع آثمًا ، أو تعصى إمامًا عادلاً ، أو تفسد أرضاً .

وأوصيك : باتقاء الله عند كل حجر ، وشجر ، ومدر ، وأن تحدث لكل ذنب توبة : السر بالسر ، والعلانية بالعلانية .

فقد اهتم القرآن بآداب المعاشرة مع الفرد ، والجماعة ، والدولة ، ورجالها ، وأنزل فيها آيات في سورة النور ، وفي الحجرات ، وفي مختلف السور .

كل ذلك : تكميل وتتميم لمكارم الأخلاق التي جاء بها النبي محمد ﷺ .

● منهج سيدنا محمد ﷺ في الدعوة

أما منهج سيدنا محمد ﷺ في الدعوة إلى الله ، فيشمل سائر مناهج الأنبياء الذين تقدم ذكرهم وذكر منهجهم ، ثم يزيد النبي ﷺ عليهم في كل ما ذكرنا بما يأتي :

أولاً : الدعوة بمكارم الأخلاق .

ثانياً : الدعوة على بصيرة .

ثالثاً : الدعوة بالحكمة .

رابعاً : الدعوة بالموعظة الحسنة .

خامساً : الدعوة بالجدال بالتي هي أحسن .

وأخيراً تفويض أمر المدعو إلى الله الذي ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَن اهْتَدَى ﴾ (النجم: ٣٠) .

أما الدعوة بمكارم الأخلاق ، فقوامها من القرآن الكريم ما خوطب به النبي ﷺ من قوله تعالى : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ (آل عمران: ١٥٩) .

أما الدعوة على البصيرة ، فعمادها من القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (يوسف: ١٠٨) .

أما الدعوة بالحكمة فنصها الموجه إلى النبي ﷺ في قوله : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجِدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ (النحل: ١٢٥) .

ونستنبط من هذه الآية وحدها ثلاثة مناهج وهي :

الدعوة بالموعظة الحسنة .

والدعوة بالجدال بالتي هي أحسن .

والدعوة بالحكمة .

أما الدعوة بالحكمة فعلى مثل ما سبق لجميع الأنبياء والمرسلين ، الذين خلوا من قبل ، فما من نبي إلا وقد أوتي الحكمة المناسبة لبيئته ورسالته .

أما الحكمة المناسبة لبيئة سيدنا محمد ﷺ فهي واضحة في سنته وأحاديثه ، لهذا فسر العلماء الحكمة في قوله تعالى : ﴿ وَادْكُرْتِ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ﴾ (الأحزاب: ٣٤) بالسنة الفعلية والقولية ، فالأحكام أو الآداب الشرعية التي جاءت في القرآن والحديث ، تسمى حكمة ، من ذلك قوله تعالى بعد ذكر الأوامر والنواهي الشرعية في سورة الإسراء : ﴿ ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ ﴾ (الإسراء: ٣٩) .

والأمثال التي جاءت في القرآن والحديث تسمى حكمة ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْآمِثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمِثْلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴾ (إبراهيم: ٢٤-٢٦) .

ومثل ما جاء في الحديث من ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « مثل القائم على حدود الله كمثل قوم ركبوا في سفينة واقتسموا أماكنهم ، فأخذ رجل منهم الفأس يضرب مكانه ، فقالوا : ما تفعل ؟ فقال : مكاني ونصيبي ! ! أفعل فيه ما أشاء ، فإن تركوه غرق وغرقوا ، وإن أخذوا على يده نجا ونجوا »^(١).

أما الدعوة بالموعظة الحسنة ، فهي : ما يكون على طريق القصص المسلية ، كقصة سيدنا يوسف التي سماها الله أحسن القصص في قوله : ﴿ تَحْنُ نَقْصُ عَلَيكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾ (يوسف: ٣) .

ويلحق بها ما يكون على الحكايات المؤثرة في النفوس كحكايات الأولياء والصالحين الذين يقتدى بهم في صلاحهم وتقواهم .

أما الجدل بالتي هي أحسن ، فهو مناظرة المعارض لإظهار الحق المعلوم . إن البسطاء لا يجادلون إطلاقاً ، وإنما يجادل العقلاء والعلماء ، الذين سبق أن أشربت في قلوبهم عقيدة أو نظرية ، لذلك جاء القرآن يبين طريقة دعوة العلماء من كل ملة ، حيث قال : ﴿ وَلَا تَجْدِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ (العنكبوت: ٤٦) .

وقال في دعوة المسلمين بعضهم بعضاً : ﴿ وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَارٍ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا ﴾ رُبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يُرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴾ (الإسراء: ٥٣، ٥٤) .

(١) وللحديث نص آخر : « مثل القائم على حدود الله والمداهن فيها ، كمثل قوم استهموا على سفينة في البحر فأصاب بعضهم أعلاها ، وأصاب بعضهم أسفلها ، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم ، فقال الذين في أعلاها : لا ندعكم تصعدون فتؤذونا ، فقالوا : لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا؟ فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً » . (رواه الإمام أحمد والبخاري والترمذي عن النعمان بن بشير) .

وقوله : ﴿ أَذْفَعُ بِأَلْتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ (فصلت: ٣٤) .

تأمل توارد جملة {التي هي أحسن} في مختلف الآيات الأربع ، وكلها تابعة للدعوة بالتي هي أحسن أو الجدل بالتي هي أحسن .
ومن الجدل بالتي هي أحسن : الاعتدال وعدم الاعتداء ، لقوله تعالى :
﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ۖ أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾
(المائدة: ٨) .

● الله أعلم بمن ضل ومن هدى

هذه حقيقة نبه الله عليها رسوله محمداً ﷺ بوجه خاص ، بعد أن علمه أساليب الدعوة ومناهجها ، أرشده إلى تفويض أمر الهداية والغواية إليه تعالى ، كما أشار إلى هذه الحقيقة في الآيات الآتية ، منها قوله : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ (القصص: ٥٦) .
ومنها قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ (يونس: ٩٩) .
﴿ وَمَا أَكْثَرَ النَّاسَ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ (يوسف: ١٠٣) .

﴿ فَلَعَلَّكَ بِنَجْعِ نَفْسِكَ عَلَىٰ أَثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾
(الكهف: ٦) .

وقوله : ﴿ إِنْ رَبُّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾
(النحل: ١٢٥) .

وقوله : ﴿ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ ﴾ (النجم: ٣٢) .

● كيف بدأ النبي في الدعوة إلى الله

ولما تحقق النبي ﷺ أنه مبعوث من الله ، ومرسل إلى الناس ، ونزلت الآية الكريمة التي تقول : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ ﴿ ١٦ ﴾ وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿ ١٧ ﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾
(الشعراء: ٢١٤-٢١٦) .

بهذه الآية أمر الله رسوله أن يقوم بالدعوة إلى الله ، وأن يبدأ بأهله وعشيرته وأصدقائه ، فدعا النبي أولاً : زوجته خديجة ، فأسلمت ، وأسلم زيد بن حارثة غلامه ، وأسلم علي بن أبي طالب ، وكلهم من آل بيته .

ثم جمع النبي عشيرته بالحكمة ، على العادة المألوفة للكرماء من العرب ، وهي الدعوة إلى الطعام ، فدعا عشيرته إلى الطعام في بيته ، فاجتمعوا وهم ما بين الثلاثين إلى الأربعين ، فأكلوا وشربوا وشبعوا ، ولم يقل لهم شيئاً في هذه المرة .

ثم دعاهم مرة ثانية كذلك ، واستطابوا الطعام ، ورجعوا مسرورين ، ثم دعاهم ثالثة ، فلما فرغوا قام فيهم خطيباً وقال لهم : « ما أعلم إنساناً في العرب جاء قومه بأفضل مما جئتم به ، قد جئتم بخير الدنيا والآخرة ، وقد أمرني ربي أن أنذر عشيرتي الأقربين ، وأنتم الأقربون من قريش ، وإنني لا أملك لكم من الله حظاً ، ولا من الآخرة نصيباً ، إلا أن تقولوا : « لا إله إلا الله » فأشهد بها لكم عند ربكم ، وتدين لكم العرب ، فتذل بها العجم ، فأياكم يؤازرنى على هذا الأمر؟ » .

فقال عبد العزى المكنى « أبا لهب » - وهو أحد أبناء عبد المطلب : « تباً لك سائر هذا اليوم ، ألهذا جمعتنا؟! »

وارتج على محمد ﷺ لما سمع من عمه هذا القول ، فكناه علي ابن أبي طالب « أبا لهب » ، فما لبث أن جاء الوحي يقول : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ (المسد: ١) إلى آخر السورة .

• التعارف والصدقة طريق السابقين إلى الإسلام

بدأ النبي ﷺ يدعو كل من توسم فيه الخير من معارفه الذين كانوا في الجاهلية أصدقاءه فبدأ أولاً بدعوة أبي بكر الذي كان صديقاً له من أيام الصبا ، فكانت هذه الصداقة سبباً لقبول أبي بكر الدعوة بالسهولة واليسر ، قرأ النبي شيئاً من القرآن على أبي بكر ، فأسلم ولم يتردد ، لذلك جاء في ثناء النبي

عليه إذ قال : « ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت عنده كبوة وتردد ونظر ، إلا أبا بكر : ما لبث حين ذكرته ، فاستجاب وما تردد ، ثم إنه واساني بنفسه وماله » .

وإنما استجاب أبو بكر ، لأنه كان يعرف صديقه محمداً ﷺ صادقاً ، أميناً ، لم يجرب عليه كذباً قط .

ثم قام أبو بكر بدعوة الآخرين ، إذ كان محبوباً في قومه ، فكانت الصداقة أيضاً سبباً لقبول عدد منهم الدين الجديد .

فأجابه عثمان بن عفان (الأموي) والزبير بن العوام ، وعبد الرحمن ابن عوف ، وسعد بن أبي وقاص ، وطلحة بن عبيد الله (التيامي) ، وأبو عبيدة (عامر بن الجراح) ، وأبو سلمة (عبد الله بن عبد الأسد) ، والأرقم ابن أبي الأرقم ، وعبد الله بن مسعود ، وعبيدة بن الحارث بن عبد المطلب ، وسعيد ابن زيد (زوج فاطمة أخت عمر) .

وكان النبي ﷺ يجتمع بهم ويعلمهم القرآن في دار الأرقم بن أبي الأرقم ، طوال ثلاث سنين ، إلى أن أمره الله بالجهر بالدعوة ، بعد إسلام عمر بن الخطاب وحمزة بن عبد المطلب .

أما إسلام عمر فقد كان النبي ﷺ يدعو بقوله : « اللهم أعز الإسلام بأحب الرجلين إليك : عمر بن الخطاب ، أو عمرو بن هشام » فأجاب الله دعوته في عمر ، فسمع عمر القرآن من سعيد بن زيد ، فرق له قلبه ، فأتى النبي ﷺ في دار الأرقم ، فتلقيه النبي ، فأخذ بجمع قميصه ، فقال له : « أسلم يا ابن الخطاب ، اللهم اهده » ، فقال عمر : أشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله ، فكبر المسلمون تكبيرة سمعها أكثر أهل مكة .

● القرآن وتأثيره بألفاظه ومعانيه

كان النبي ﷺ إذا دعا إنساناً إلى الإسلام تلا عليه القرآن ، وكان يدعو أولاً إلى عبادة الله وحده ، وترك عبادة الأوثان والأصنام ، ويأمره بالصلاة ، والصدق ، والعفاف ، وصلة الرحم ، والأمانة ، ثم تلا عليه ما تيسر من القرآن .

وكان القرآن يأخذ بمجامع قلب سامعه ، لأنه معجز لفظاً ومعنى ، لذلك قال النبي ﷺ : « ما من الأنبياء من نبي إلا وقد أعطى من الآيات ما على مثله آمن البشر ، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة »^(١) .

ولقد تأثر به النجاشي حين استمع إلى جعفر بن أبي طالب (في صدر من سورة مريم) وفيه حديث ميلاد المسيح ، فقال النجاشي : « إن هذا والذي جاء به المسيح ليخرج من مشكاة واحدة » .

وتأثر بسماعه عتبة بن ربيعة حين سمعه وقال لقومه : « إني قد سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر ، ولا بالسحر ، ولا الكهانة » .

ولما سمع الوليد بن المغيرة قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَنِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (النحل: ٩٠) قال : « والله إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أسفلهُ لمغدق ، وإن أعلاه لمثمر ، ما يقول هذا بشر » .

وتأثر بسماعه الجن ، فقالوا : ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۖ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۚ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴾ (الجن: ١، ٢) .

فعلى الدعاة أن يتخذوا القرآن أداة هامة لدعوتهم إلى الله ، فإن معجزته في الأخذ بمجامع القلوب لا يقتصر على السامعين من العرب ، بل تأخذ معانيه أبواب السامعين من العجم أيضاً ، فهو معجزة النبي ﷺ الخالدة كما جاء في الصحيحين : « ما من الأنبياء إلا من قد أوتي ما على مثله آمن البشر وإنما الذي أوتيته وحياً يوحى إليّ ، وأرجو أن أكون أكثرهم تبعاً يوم القيامة » .

قال البوصيري :

دامت لدينا ففاقت كل معجزة من النبيين إذ جاءت فلم تدم

(١) متفق عليه ورواه الإمام أحمد عن أبي هريرة .

• تتبع المجتمعات لتبليغ الدعوة بعد الجهر بها

نزل الوحي بقوله تعالى : ﴿ فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾
إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿ (الحجر: ٩٤، ٩٥) .

بذلك قام النبي ﷺ وصعد على الصفا ، ونادى بأعلى صوته قائلاً :
« يا معشر قريش » قالت قريش : محمد ﷺ على الصفا يهتف ، وأقبلوا عليه
يسألون : ما له ؟ قال : « رأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل ، أكنتم
تصدقون » ؟ قالوا : نعم ، أنت عندنا غير متهم ، وما جربنا عليك كذباً قط .
قال : « فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد ، يا بني عبد المطلب ، يا بني عبد
مناف ، يا بني زهرة ، يا بني مخزوم ، يا بني أسد : إن الله أمرني أن أنذر
عشيرتي الأقرين ، وإني لا أملك لكم من الدنيا منفعة ، ولا من الآخرة نصيباً ،
إلا أن تقولوا : لا إله إلا الله » فلم يجيبوا بخير .

ثم بدأ النبي يتبع الحاج في أسواق عكاظ ، أو مجنة ، أو ذي المجاز ، يسأل
عن القبائل ومنازلهم ويدعوهم إلى الإسلام وكلمة التوحيد ، ويطلب أن
ينصروه حتى يبلغ رسالة ربه ولهم الجنة ، فلا يجد أحد ينصره ، ووراء عمه
أبو لهب يقول : إنه صابئ كاذب . يتبعه حيث ذهب ، فلقى النبي ﷺ من
تكذيبه أذى كثيراً ، منهم من يستهزئ به ومنهم من يرميه من ورائه .

• جواز طلب الحماية للدعوة

كان رسول الله ﷺ عند بدء الدعوة في حماية عمه أبي طالب وزوجته
خديجة ، فلم يتمكن الأعداء من الاعتداء عليه ، بحكم عادة العرب في الجوار
والنسب ، ولما مات عمه ، ثم ماتت زوجته في السنة العاشرة من البعثة ، رأى
رسول الله أن لابد من الاستيجار بقوي شريف ، حتى يؤدي رسالته حق الأداء ،
فذهب إلى الطائف ، وقابل أشرافهم من بني ثقيف ، ودعاهم إلى الإسلام
ونصرته في القيام بالدعوة إلى الله ، فكان ردهم قبيحاً ، فخرج إلى مكة وأرسل
إلى مطعم بن عدي أنه يدخل في جواره قبل دخول مكة ، فأجابه مطعم ،
فتوجه إلى الكعبة مسلحاً وأعلن حمايته للنبي ﷺ على ملا من قريش .

● ما يُستفاد من هذا الدرس

أولاً : إذا كان الداعي إلى الله فرداً جاز له أن يتحصن بالحماية التي توافره ليتقوى ، وإذا تكتل الدعاة ، وتكونت منهم هيئة على شكل نقابة استطاعوا أن يدافعوا عن أنفسهم لتبليغ رسالة ربهم ، فلا داعي للركون إلى دولة أو حكومة لا تؤمن بالدعوة .

ثانياً : لا بأس للداعية في حالة الضعف أن يستجير بشخص أو جماعة أو دولة غير مسلمة ، فلقد كان النبي ﷺ يحتمي بعمه أبي طالب ، وهو غير مؤمن بما جاء به ، ولكنه لم يعارضه في تبليغ حمايته .

وقد التجأ المسلمون إلى ملك الحبشة قبل إسلامه - إذا قيل بإسلامه .
وانتهز النبي يوسف ﷺ فرصة هذه الحماية لدعوته حين قال لفرعون مصر : ﴿ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْكُمْ ﴾ (يوسف: ٥٥) .
ولم يذكر القرآن أن فرعون مصر هذا قد أسلم على يد يوسف ، ولكنه مكّنه في الأرض لتبليغ الدعوة .

﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ ﴾ (يوسف: ٥٦) .

● الدعوة بين الاستقلال والالتجاء

لقد تبين من استعراض دعوة الرسل أن الملوك والأشراف هم الذين كانوا يعارضون دعوة الأنبياء والمرسلين والصالحين من المؤمنين .

وظل الملوك والرؤساء في كل زمان ومكان ، يقفون حجرة عثرة في سبيل الدعوة إلى الله ، بل في سبيل إصلاح مرافق الحياة في المجتمع البشري .

وإذا استثنينا الدول التي قامت على أساس الدين في بعض البلاد العربية (في المغرب والسودان والسعودية) وبعض البلاد الإسلامية كنيجيريا ، فلا يوجد الاتفاق بين الدعاة والملوك إلا قليلاً .

ولأمر ما لم يبعث الله عبداً رسولاً إلى الناس : إما لصون كرامته عند المدعويين وحمايته ، وإما لتمام استقلاله من نير العبودية لغير الله .

ولم يكن النبي يوسف موظفًا تحت فرعون مصر ، وإنما كان رئيس دولة ، بمنزلة رئيس الوزراء ، الذي بيده الحل والعقد ، فتمكن بذلك من نشر دعوة التوحيد إلى جانب وظيفة الدولة ، ولقد كانت الدعوة غاية الدولة الإسلامية أيام الخلفاء الراشدين ، ثم صارت جزءًا من الدولة أيام الخلفاء الأمويين الذين أنزلوا القصاصين والأدباء والشعراء مكان العلماء والفقهاء والوعاظ .

ومن هنا بدأت الدعوة تستقل تدريجيًا عن الدولة ، فصار الدعاة يعارضون الخلفاء والأمراء بنصائحهم المريرة ، وصار الخلفاء والأمراء يضطهدون أولئك الدعاة ، بشتى أنواع الاضطهاد ، فظهر التنازع بين الطرفين واضحًا ، بل صارت الدولة حربًا على الدعوة ، هذه شر بدعة أحدثها الخلفاء الأمويون ، ثم ورثها منهم العباسيون ومن بعدهم إلى يومنا هذا ، كما سيأتي في محله .. إن شاء الله .

● تضحية الرعيل الأول في الإسلام

أحست قريش بتغلغل الإسلام في مجتمعاتهم ، يدخل فيه أبناءهم ونسائهم ، فاتفقوا على أن يحاولوا إيقاف انتشار الإسلام بمختلف الوسائل ، باضطهاد النبي ﷺ صاحب الدعوة أولاً ، ثم بالمؤمنين به ، وإيذائهم بكل أنواع الأذى ، فقامت كل قبيلة بارغام من دخل في الإسلام من أبنائها ، على الرجوع منه إلى دين آبائه (الوثنية) .

فصاروا يتفننون في إيذائهم وتعذيبهم : بالضرب ، والتجريح ، والتعطيش :

١ - لجأت قريش إلى مقاطعة آل بني هاشم وبني عبد المطلب ، أن لا يتزوجوا منهم ولا يزوجهم ، ولا يبيعوهم شيئاً ولا يبتاعون منهم ، وكتبوا بذلك صحيفة وعلقوها في جوف الكعبة ، وأقاموا على تلك الحال ثلاث سنين ، لا يصلهم الطعام إلا خفية بالليل سرًا ، إلى أن قام أشراف من قريش ، وعلى رأسهم المطعم بن عدي بنقض الصحيفة ، فوجدوا أن الأرضة قد أكلتها ، كما سبق أن أخبر النبي ﷺ عمه بذلك .

٢- وكان بنو مخزوم يخرجون عمار بن ياسر وأمه وأباه إذا حميت الظهيرة ، يضعونهم في الرمضاء ويطعنونهم بالحديدة المحماة ، فيمر بهم النبي ﷺ ويقف برهة يقول : « صبراً يا آل ياسر فإن موعدكم الجنة » .

٣- فقأ أبو جهل عين أمته « زنيرة » فاشتراها أبو بكر ، ثم رد الله إليها بصرها بدعاء النبي ﷺ .

٤- تفنن أمية بن خلف في تعذيب عبده « بلال بن رباح الحبشي » فاشتراه أبو بكر وأعتقه لوجه الله تعالى ، فاتخذ النبي ﷺ مؤذناً للصلاة فيما بعد ، تقديرًا لإيمانه واحتماله الأذى وصبره على البلاء في سبيل الله الواحد القهار .

٥- قام أبو بكر يومًا يدعو إلى الإسلام ، فتجمعت عليه قريش وأوسعوه ضربًا موجعًا حتى سقط مغشيًا ، فحمله قومه بنو تيم إلى داره ، ولم يفق إلا في آخر النهار .

٦- حبس الحكم بن أمية أخاه عثمان أيامًا وجوعه وضربه ، فأعياه الضرب ، ثم طرده من منزله لعدم رجوعه إلى دين الكفر .

• بلوغ الدعوة إلى يثرب ، وأول مبعوث إليها

جاء وفد من الأوس إلى قريش يطلبون محالفتهم على الخزرج ، لما بينهم من الحروب الداخلية ، فلما علم النبي ﷺ بمقدمهم أتاهاهم ، وقال لهم : « أنا رسول الله ، بعثني إلى الناس لأدعوهم إلى عبادة الله وحده ، وأنزل عليّ الكتاب » ، وتلا عليهم شيئًا من القرآن ، ولكنهم لم يستجيبوا حتى انصرفوا إلى يثرب وفي قلوبهم أثر ما سمعوا .

وفي العام القابل أتى ستة من الخزرج ، فجاءهم رسول الله ﷺ كعادته ، فدعاهم إلى الإسلام فأجابوه وصدقوه ، ولما رجعوا إلى بلادهم أخبروا قومهم فصادف ما قد سبق في الأوس ، فانتشر خبر الإسلام حتى لم يبق دار من دورهم إلا وفيها خبر الإسلام .

وفي العام الثالث أتى اثنا عشر رجلاً ، فالتقى بهم النبي ﷺ في العقبة ، فبايعوه على الإسلام وحمايته ، وفي العام الرابع أتوا - وهم سبعون - وطلبوا إلى النبي ﷺ أن يهاجر إليهم ليتمكن من نشر دعوته ، فبعث معهم النبي ﷺ مصعب بن عمير ليعلمهم الإسلام ، ويقرءهم القرآن ، ويفقههم في الدين ويؤمهم في الصلاة ، وقد أسلم على يديه أشراف يثرب ، منهم : أسيد ابن حضير ، وسعد بن معاذ ، من الأوس ، وكان مصعب بن عمير أول من سمى مقررًا ، فتبعه بعض المهاجرين إلى يثرب ، ثم هاجر عمر بن الخطاب ، ثم هاجر النبي ﷺ بصحبة أبي بكر ثم بقية الصحابة المهاجرين فاستقبلهم أهل يثرب بالحفاوة والتكريم ، وعرفوا بالأنصار ، ونزلت الآية في التنويه بهم في قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (الحشر: ٩) .

فقد أكرم الأنصار إخوانهم المهاجرين ، حتى صاروا مضرب المثل في التعاون وحسن الخلق ، وكذلك يجب أن يكون المسلمون فيما بينهم دائماً .

● الهجرة فرار بالدين وليست فراراً بالنفس

لقد علمت أن كل قبيلة من قبائل قريش قد تحالفت على تعذيب كل من دان بالإسلام ، وكل من أجار مسلماً ، ليفتنوا المسلمين في دينهم ، وليردوهم كفاراً مشركين ، حتى بني هاشم الذين هم رأس قبائل قريش ، لم تنفعهم رئاستهم في هذا الموقف ، ولم تنجهم من الاضطهاد ، ولم يقدر النبي ﷺ على حماية أصحابه مما يقاسونه من ألوان العذاب .

قال تعالى : ﴿ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾

(البروج: ٨) .

لهذا قال قول القائد المشفق على أتباعه : « لو خرجتم إلى الحبشة فإن بها ملكاً لا يظلم أحد عنده حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه » .

فكانت الهجرة الأولى في الإسلام مكونة من عشرة رجال ، وأربع نسوة ، ولم يزل المسلمون يهاجرون إلى الحبشة حتى بلغوا ثلاثة وثمانين رجلاً ، وسبع عشرة امرأة .

ولما وصلوا الحبشة أكرمهم النجاشي وآواهم ، وظلوا بها يمارسون شعائر دينهم في أمن وسلام ، وفي غير خوف ولا وجل .

ولقد سبق أن الهجرة من مكان إلى مكان لتمكين الدعوة كانت من سنن الأنبياء وقد هاجر أبو الأنبياء إبراهيم ، وهاجر موسى من مصر إلى مدين ، وهاجر عيسى مع أمه من فلسطين إلى مصر ، قبل أن يعود إليها حين بلغ أشده .

ولما اشتد أذى قريش على النبي ﷺ وأصحابه ، وشاء الله أن يشرح صدور أهل يثرب بالإسلام ، فأسلموا : طلبوا من النبي ﷺ وأصحابه أن يهاجروا إليها ، فهاجر الفوج الأول من الصحابة إلى يثرب كما سبق .

ثم لحق بهم النبي ﷺ ، وصاحبه أبو بكر ، فلقبهم أهلها بالحفاوة البالغة والتكريم المنقطع النظير .

فسميت يثرب من ذلك الوقت « مدينة الرسول »^(١) ومنطلق الدعوة ، والعاصمة الأولى للدولة الإسلامية ، فكانت الهجرة فتحاً جديداً للتاريخ الإسلامي إلى يومنا هذا .

● أعمال النبي ﷺ في دار هجرته وأساليب دعوته

أول ما فعله النبي ﷺ بعد وصوله المدينة لتمكين الدعوة وتأمين الدعاة ، شراؤه أرض المسجد من أصحابها بعشرة دنانير مجموعة من تبرعات أصحابه .

(١) ولذلك ورد حديث صحيح رواه الإمام أحمد عن البراء : « من سمى المدينة يثرب ، فليستغفر الله : هي طابة ، هي طابة » وأظن - والله أعلم - أن « يثرب » من التثريب ، وهي المؤاخذه واللوم ، ولذلك نهى رسول الله ﷺ عن هذا الاسم ، لأنه لا تثريب على من هاجر إليها مؤمناً . والله أعلم .

ثم بناء هذا المسجد الشريف ، ليكون « برلماناً للشورى » يجمع المسلمين ، و« جامعة » لتعليم أمور الدين والدنيا ، و« محكمة » للقضاء ، و« نزلاً » للغرباء ، ومكاناً للصلاة .

وفرضت صلاة الجمعة لجمع شمل المسلمين كل أسبوع ، وجعل الخطبة ركناً هاماً من أركان الجمعة يرشدهم فيها إلى ما ينفعهم في دنياهم وآخرهم ، ويهديهم ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، ويعظهم لعلهم يذكرون .
يخطبهم في الجمع ، وفي العيدين - عيد الفطر وعيد الأضحى - وفي كل حدث تاريخي .

وإذا جد أمر ، أمر بلالاً ينادي : « الصلاة جامعة » ، فإذا اجتمع الناس رقى المنبر وخطب .

ثم إذا صلى الفريضة وأراد أن يرشد الناس إلى ما ينفعهم أقبل عليهم بعد الصلاة وأرشدهم إلى ما يريد لهم من الخير أو ينذرهم عنه من الشر .
وكان النبي ﷺ يستقبل الوفود في مسجده ويجيب على الأسئلة التي يوجهها إليه أصحابه من أمور الدين والدنيا ، ويعظهم وينصحهم .

وكان النبي ﷺ إذا صلى العيد ذهب إلى صفوف النساء فوعظهن وأمرهن بالصدقة ، فيسقط بلال ثوبه فترمي كل امرأة فيه صدقتها .

وجاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله ، ذهب الرجال بحديثك ، لو جعلت لنا من نفسك يوماً نأتك فيه تعلمنا مما علمك الله ؟ فقال رسول الله : « اجتمعن يوم كذا وكذا » ، فأتاهن رسول الله ﷺ فعلمهن مما علمه الله .

● ما يستفاد من هذا الدرس

ولقد علمنا من هذه السيرة النبوية الكريمة أن النبي ﷺ كان يخصص النساء بالوعظ بعد صلاة العيد كما كان يخصص لهن يوماً لتعليم أمور الدين والدنيا معاً .

فعلم من ذلك وجوب تعلمهن أمور الدين والدنيا معاً .

ولقد تعلمت السيدة عائشة - رضي الله عنها - حتى صارت إحدى رواة الحديث المكثرين عن رسول الله ﷺ وحتى قال فيها النبي : « خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء » .

ولقد نبغت عدة نساء مسلمات في مختلف العصور ، وفي شتى العلوم الإسلامية .

فتعليم المرأة وتعلمها أمور الدين والدنيا واجب في شريعة الإسلام ، وكذلك وعظها وتعليمها غيرها .

● عناية النبي ﷺ بمصالح أمته في المدينة

كانت عناية النبي ﷺ بمصالح أمته أكبر وأعظم من عناية أي قائد أو زعيم^(١) .

وأول ما فعله هو تأليفه بين المهاجرين والأنصار ، حيث آخى بين كل اثنين من المهاجرين والأنصار .

فكان سيدنا أبو بكر ممن اقتطع له أخوه أرضاً بالسنع ، يزرع فيها . وكان سيدنا عبد الرحمن بن عوف ممن أرشده أخوه إلى السوق ، فأخذ يتاجر فيها حتى أثرى .

هكذا فعل النبي ﷺ للسابقين إلى الهجرة .

أما الذين تأخروا في اللحاق بهم فلم يتمكنوا من الحصول على ما حصل عليه السابقون ، فبنى لهم النبي ﷺ مكاناً في مؤخر مسجده ، فسمى المكان « صفة » وكان يأوى إليها كل من لا أهل له ولا مال ، فيجعل لهم النبي ﷺ

(١) قال عروة بن مسعود - حين وجهته قريش عام الحديبية - لما رجع إلى قريش : « يا معشر قريش ، إني جئت كسرى في ملكه ، وقيصر في ملكه ، والنجاشي في ملكه ، وإني والله ما رأيت ملكاً قط في قوم قط مثل محمد في أصحابه » (الشفاء : المجلد الثاني : علامة محبته ﷺ) .

نصيباً من الزكاة والصدقات والهبات حتى يجعل الله لهم سبيلاً إلى المعيشة الكريمة ، أو منزلاً يأوون إليه ، وكان أهل الصفة قد بلغوا أربعمائة : يتعلمون القرآن ، ويصومون ، ويخرجون مع النبي ﷺ إلى الغزوات ، وكان النبي ﷺ يدعوهم إلى العشاء معه بالليل أو يفرقهم على أصحابه ليتعشوا معهم في منازلهم ، وكان يقول : « طعام الواحد كافي الاثنين ، وطعام الاثنين كافي الأربعة ، وطعام الأربعة كافي الثمانية »^(١).

وفي أهل الصفة نزلت الآية الكريمة : ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَارِنَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة: ٢٧٣) .

وألف النبي ﷺ بين الأوس والخزرج (القبيلتان اللتان كانتا متنازعتين قبل الإسلام) ، كما ألف بين سكان ما حول المدينة حتى اطمأن الجميع إلى بعضهم بعضاً .

وكتب لليهود كتاباً اشترط لهم وعليهم ، وأقرهم على دينهم وأموالهم ، فعل كل ذلك ليتمكن المسلمون من أداء عبادة ربهم وتبليغ رسالته .

● هل انتشر الإسلام بالسيف ؟

يظن بعض من ليس له عمق في النظر والفكر أن الإسلام قد انتشر بالسيف ، لأن المسلمين بعد استقرارهم بالمدينة المنورة ، قاموا بالحروب الهجومية على مخالفيهم ، فقامت بذلك سلسلة من الغزوات التي انتصر فيها المسلمون ، فاستطاعوا بها نشر الإسلام بالقوة !! ففي هذا الكلام مغالطة .

والواقع أنه لا شك أن الانتصارات المتتالية للنبي ﷺ وأصحابه في الغزوات التي قامت بين المسلمين من جانب والمشركون واليهود والنصارى من جانب

(١) رواه أحمد ومسلم والترمذي والنسائي عن جابر بن عبد الله .

آخر قد أدخلت الرعب في قلوب الأعراب في الجزيرة العربية ، وفي قلوب الأمم المجاورة ، وجعل الناس يدخلون في دين الله أفواجا ، لا شك في ذلك ، كما لا شك في أن الإسلام شرع القتال لإعلاء كلمة الحق ، لقوله تعالى : ﴿ فَلْيَقْتُلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقْتَلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ٧٤ ﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ٧٥ ﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ٧٦ ﴾ (النساء: ٧٤-٧٦) .

وفي الحديث : « رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها ، وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها ، والروحة يروحها العبد في سبيل الله أو الغدوة خير من الدنيا وما عليها » ^(١) .

وفيه أيضاً : « من مات ولم يغز ، ولم يحدث نفسه بالغزو ، مات ميتة جاهلية » ^(٢) .

كل ذلك قد كان ولكنه أمر ثانوي في منهج الدعوة وأساليب تبليغها ، إذ لو ترك الكفار الدعوة والدعاة ولم يتعرضوا لها ولا لحياة الدعاة ، لما شرع القتال .

وليت من لم يكن بالحق مقتنعاً يخلي السبيل ولا يؤذي من اقتنعا وإنما شرع القتال للدفاع عن النفس وتأمين حياة الدعاة ، ليتمكنوا من عبادة الله ودعوة الآخرين إلى عبادة الله .

(١) رواه البخاري وأحمد والترمذي عن سهل بن سعد .

(٢) وفي حديث آخر : « من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بغزو ، مات على شعبة من نفاق » رواه أحمد ومسلم وأبو داود والنسائي عن أبي هريرة .

وإذا كان رد فعل القتال قد أسفر أخيراً عن انتشار الإسلام ، فليس القتال في مبدأ الأمر أسلوباً لنشر الدعوة بالقهر والقوة .

ولذلك نعتقد أن الذين ينشرون العقيدة أو الدعوة الإسلامية بالشدة والعنف والقوة والقهر ليسوا على الحق ، إنما الدين يسر وعفو وتسامح وتودد .

• كيف بدأ القتال في الإسلام ؟

لبث النبي ﷺ ثلاثة عشر عاماً بمكة المكرمة يدعو قومه إلى عبادة الله وحده ، ونبذ الأوثان والأصنام ، فتعرض من أجل هذه الدعوة - هو ومن آمن به - لأنواع الأذى حتى اضطروهم إلى مغادرتهم وطنهم ، ولما شعر المشركون بهجرة المسلمين صاروا يقتفون آثارهم ليدركوهم في الطريق ، ليقتلوهم وليسلبوا أموالهم .

وقد طردوا كثيراً من المسلمين من ديارهم ، واستولوا على أموالهم وعقارهم ، ولما علموا باستقرارهم في المدينة ، وأنهم صادفوا أهلاً ، ووطنوا سهلاً هناك ، لم يطيّبوا نفساً أن يتركوهم أحراراً ، بل استعدوا للهجوم عليهم ، لذلك أذن الله للمسلمين أن يدافعوا عن أنفسهم .

وأول آية نزلت في القتال صرحت بأنه إنما شرع للدفاع عن النفس ، وعن الدعوة لقوله تعالى :

﴿ أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَتِّلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا ۖ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۝ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ۚ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفُتَّتْ صَوْمِعُ وَيَبِعُ وَصَلَوَاتُ وَمَسْجِدُ يُذَكِّرُ فِيهَا أَسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ۚ وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ۚ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ۝ ﴾ (الحج: ٣٩-٤١) .

وقد كره المسلمون القتال في أول أمرهم حتى نزلت آيات تحرضهم على ذلك ، منها قوله تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَنْ

تَكَرَّهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ (البقرة: ٢١٦) .

وقوله تعالى : ﴿ يَتَأَيَّأُ النَّبِيُّ حَرْضُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ (٢١٦) أَلَيْسَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢١٧﴾ (الأنفال: ٦٥، ٦٦) .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ ﴾ (النساء: ٧٥) .

ولما كان من طبيعة القتال : الهزيمة ، والشهادة ، والنصر ، والغنيمة ، أنزل الله آيات بأحكام الأمرين ، وقال في جزاء الهزيمة والشهادة : ﴿ إِنْ اللَّهُ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (التوبة: ١١١) .

وقال في آية أخرى : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ (٢١٧) فَرَحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاسْتَبْشِرُوا بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢١٨﴾ * يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلِهِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٩﴾

(آل عمران: ١٦٩-١٧١) .

وشرع أحكام الغنيمة والأسر بقوله : ﴿ * وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَىٰ الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (الأنفال: ٤١) .

وفي الأسرى قال تعالى : ﴿ مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يُتَخَيَّرَ فِي الْأَرْضِ ﴾ (الأنفال: ٦٧) .

وفي آية أخرى قال : ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَخْنَتُمْهُمْ فَشُدُّوا أَلْوِثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدَ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾ (محمد: ٤) .

ورغب في تحرير العبيد ترغيباً عظيماً ، وجعله كفارة للكبائر من الذنوب ، قال : ﴿ وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٌ ﴾ (النساء: ٩٢) .

وقال أيضاً : ﴿ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا ﴾ (المجادلة: ٣) .

وقال أيضاً في كفارة اليمين : ﴿ فَكَفَرْتُهُ إِطْعَامَ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ﴾ (المائدة: ٨٩) .

وشرع حسن المعاملة مع المقاتلين بقوله : ﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا ﴾ (الأنفال: ٦١) ^(١) .

وفي آية أخرى قال : ﴿ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوْدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ لا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿ إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوهُمْ أَنْ تَوَلَّوهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (المتحنة: ٧-٩) .

(١) يقال : جنحت السفينة إلى الشاطئ إذا دفعتها الأمواج ، وبهذا يكون المعنى - والله أعلم بمراده - : إذا دفعتهم أمواج الغلبة والقهر لأن يطلبوا منك السلام إبقاء على حياتهم ، فسالهم .

● الجهاد وأنواعه وشروطه

الجهاد لغة هو : بذل الجهد والطاقة ، وشرعاً : هو بذل النفس والنفيس في سبيل نشر العقيدة السماوية ، عقيدة التوحيد ، أو في سبيل الدفاع عن هذه العقيدة .

ويرادف كلمة الجهاد كلمة : القتال ، والغزو ، والحرب ، والكفاح ، والنضال .

غير أن الجهاد اصطلاح خاص بالدين ، وهو ما يكون لإعلاء كلمة الله ، وإحقاق الحق وإزهاق الباطل ، ولكنه آخر الدواء كالكي .

وبعبارة أخرى لإقامة الحق على أنقاض الباطل ولكن بعد ما عيل الصبر واليسر والأناة .

ولقد شرع الجهاد في الإسلام كما شرع في الأديان السماوية السابقة .

● الجهاد في الأديان السماوية السابقة

فقد ورد في التوراة أن سيدنا إبراهيم قاتل الكفار وحاربهم .

كما في سفر التكوين (الإصحاح الرابع عشر) : « أن ملك شنعار وحلفائه الآشوريين قاموا بحرب هجومية على سدوم ، حيث كان يسكن لوط ابن أخي إبراهيم ، وشتتوا أهلها ، واستولوا على جميع أملاكها ، وساقوا أكثر أهلها إلى بلادهم أسارى ، ومعهم لوط ، إلا من نجا منهم إلى الجبل فهرب ملك سدوم ، وبلغ إبراهيم الخبر ، وهو في بلوطة عند الذين كانوا أصحاب عهد معه ، فجمع غلمانه وكانوا نحو ثلاثمائة وثمانية عشر ، وتوجه إلى دان ، وهاجم الشنعاريين وحلفائهم الآشوريين ، وانتصر عليهم ، واسترجع كل الأملاك والأسارى ولوطاً وأملاكه ، فخرج ملك سدوم لاستقباله عند رجوعه ، فقاسم إبراهيم الأموال وأخذ النفوس ، فرفض إبراهيم ذلك كله على أنه جاهد في سبيل الله وهو يرجو رضاء الله ، فدعا له بالبركة : ملكى صادق الذي كان كاهناً لله تعالى » . اهـ . بتصرف .

ويؤخذ من ذلك أن أبا الأنبياء هو أول من جاهد وقاتل في سبيل الله ، وفي سبيل المستضعفين من الرجال والنساء والولدان .

وجاء في سفر التثنية (الإصحاح العشرين) شروط الجهاد لموسى وقومه : « إذا خرجت للحرب على عدوك ، ورأيت خيلاً ومراكب قوم أكثر منك ، فلا تخف منهم ، لأن معك الرب إلهك الذي أصعدك من أرض مصر ، وعندما تقربون من الحرب يتقدم الكاهن ويخاطب الشعب . . . » .

إلى أن قال : « وحين تقرب من مدينة لكي تحاربها استدعها إلى الصلح ، فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك ، فكل الشعب الموجود فيها يكون لك بالتسخير ويستعبد ، وإن لم تسالمك بل عملت معك حرباً ، فحاصرها ، وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف ، أما الأطفال والبهائم ، وكل ما في المدينة فتغنمها لنفسك ، وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب إلهك » .

جاهد نبي الله موسى ﷺ في سبيل الدعوة إلى الله ، وإن لم يتم الفتح على يده فقد تم على يد تلميذه « يوشع بن نون » وعلى الجهاد سار أنبياء بني إسرائيل إلى عهد شمويل وطالوت وداود وسليمان ، كما هو مدون في التوراة الحاضرة .

أما النصرانية فقد استعد نبي الله عيسى عليه الصلاة والسلام للقتال ، إذ في الأناجيل الحاضرة إشارات لذلك ، وقد أمر تلاميذه بشراء السيف ، كما في إنجيل لوقا (في الإصحاح الثاني والعشرين) ، ومثله ما جاء في إنجيل متى (الإصحاح العاشر) : « لا تظنوا أنني جئت لألقي سلاماً على الأرض ، ما جئت لألقي سلاماً ، بل سيفاً ، فإني جئت لأفرق الإنسان ضد أبيه ، والابنة ضد أمها ، والكنة ضد حماتها ، وعداء الإنسان أهل بيته ، ومن أحب أباً أو أمّاً أكثر مني فلا يستحقني » .

إذا كانت هذه هي وصايا المسيح في الأناجيل الحاضرة-والله أعلم بصحتها- فماذا يقول القائد للجنود الذين استعدوا لخوض غمار الحرب أكثر من هذا...؟ وربما كان قصر مدة نبي الله عيسى عليه السلام وعدم كثرة أتباعه في عهده ، هو الذي منعه من الدخول في الحرب .

وفي المنطق الإسلامي أن نقول : إن نبي الله عيسى عليه الصلاة والسلام لم يؤمر بالقتال ، ولو أمر بالقتال لهماً الله له أسباب ذلك - مع قصر مدته - ولنصره الله على أعدائه ، كما نصر الأنبياء المجاهدين من قبله ، وكما نصر سيدنا محمداً صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين من بعده .

● شروط الجهاد في الإسلام

تلك هي شروط الجهاد في التوراة ، وأخبار الجهاد عند خليل الله إبراهيم أبي الأنبياء ، وآثاره عند النبي عيسى ، فهل بقي شيء في نفس النصراني يريدون أن ينالوا من الإسلام نيلاً من أجل الجهاد ؟

على أن الجهاد لا يكون في الإسلام إلا على قواعد وشروط وأسباب .

ويمكن حصر تلك الأسباب الأساسية فيما يأتي^(١) :

أولاً : الدفاع عن الدين والنفس والأهل والمال ، وهو ما يسمى بالضرورات الست المجموعة في قول اللقاني :

وحفظ دين ثم نفس مال نسب ومثلها عقل وعرض قد وجب

ودليله من القرآن قوله تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقْتُلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ (البقرة: ١٩٠) .

ثانياً : حماية الدعوة حتى لا يقف في طريقها معترض يمنع وصولها إلى الناس ، ودليله قوله تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ أَنْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ (البقرة: ١٩٣) .

(١) الإسلام والسلام العالمي ، للإمام حسن البنا .

ثالثاً : تأديب الذين تمردوا على المؤمنين ، وخرجوا على إمامهم ، ونكثوا أيمانهم ، ودليله قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعْنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَيْمَةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ ﴾ .
(التوبة: ١٢) .

وشروط الجهاد تنحصر فيما رواه مسلم في صحيحه : أن النبي ﷺ كان إذا أمر أميراً على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله وبمن معه من المسلمين ، ثم قال : « اغزوا باسم الله ، وفي سبيل الله ، قاتلوا من كفر بالله ، اغزوا ، ولا تغلوا ، ولا تغدروا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا وليداً ، وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال ، فأيتهم ما أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم : ادعهم إلى الإسلام ، فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم .

ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين ، وعليهم ما على المهاجرين ، فإن أبوا أن يتحولوا منها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجري عليهم حكم الله الذي يجري على المؤمنين ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء ، إلا أن يجاهدوا مع المسلمين ، فإن هم أبوا فسلهم الجزية ، فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم ، فإن هم أبوا فاستعن عليهم بالله تعالى وقاتلهم .

وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه فلا تجعل لهم ذمة الله ولا ذمة نبيه ، ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك فإنكم إن تخفروا ذممكم وذمم أصحابكم أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة رسوله ، فإذا حاصرت أهل حصن ، فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله ، فلا تنزلهم على حكم الله ، ولكن أنزلهم على حكمك ، فإنك لا تدري أتصيب فيهم حكم الله أم لا » ^(١) .

(١) من هذا الحديث الشريف يتبين لك الحق واضحاً جلياً بين نصوص التوراة والإنجيل ، ونصوص الإسلام ، وتعرف الفرق بين النقيضين : الحق والباطل وأيهما أرحم بالناس .

هكذا وضع الإسلام قواعد الجهاد ، وسار عليها المسلمون من الصدر الأول إلى يومنا هذا .

• أثر الجهاد في انتشار الإسلام

لا شك أن الانتصارات التي أحرزها المسلمون في جهادهم مع المشركين ، واليهود ، والنصارى ، مما أدخل كثيراً من الكفار في دين الله أفواجاً .

ذلك أنه لما ظهر الإسلام بمكة ، وأسلم عدد قليل من قريش ومواليهم ، بفضل ما اشتهر به النبي ﷺ قبل النبوة من : الصدق ، والأمانة ، والوفاء وكل الصفات الحميدة ، ثم بفضل أصدقائه الذين سبقوا إلى هذا الدين بفضل الصداقة ، وكلهم لم يبلغوا ثلاثمائة من جميع من أسلموا طوال ثلاثة عشر عاماً قضاها النبي ﷺ في الدعوة إلى الإسلام بالطرق السلمية بل كان يقابل بكل جفاء وأذى ويتذرع بالحلم والصبر .

ولما أسلم أهل يثرب (المدينة) من الأوس والخزرج ، وسموا بالأنصار ، هاجر إليهم النبي ﷺ وأصحابه المسلمون .

ثم أسلم قليل من يهود المدينة ، وعلى رأسهم عبد الله بن سلام ومخيرق ، وأسلم قليل من نصارى اليمن .

وقامت الحرب بين المسلمين وغيرهم ، وانتصر المسلمون في جميعها ، ثم كان فتح مكة للمسلمين الذين دخلوها منتصرين ظافرين ، بعد أن أخرجوا منها شبه مطرودين ، فدخلت قريش بأسرها في الإسلام ، وهم سادة قبائل العرب أجمع بفضل سداة الكعبة .

وحينذاك رأى الأعراب - في سائر أنحاء الجزيرة العربية - أن الإسلام قد عمهم وغلب عليهم ، ولم يكن لهم بد من الاعتراف بالواقع ، والدخول في الدين الجديد ، مخلصين أو مداهنين ، فأخذت كل قبيلة ترسل وفداً من رؤسائها إلى مبايعة النبي ﷺ والدخول في الإسلام ، وشرعوا يدخلون أفواجاً ، وكان ذلك في السنة التاسعة من الهجرة ، فسمى « عام الوفود » .

● رؤساء الوفود

لقد وفد على النبي ﷺ طائفة ممن قد أسلموا على أيدي الدعاة المبعوثين إلى بلادهم ، ثم جاءوا يتعلمون الإسلام على يد النبي ﷺ ومنهم من لازموا النبي يوماً أو أسبوعاً أو شهراً ، ثم عاد إلى بلاده يدعو الناس إلى الإسلام ، وطائفة أخرى أتوا النبي ﷺ يطلبون منه شروطاً قبل دخولهم في الإسلام ، فأبى النبي ﷺ لبعضهم ، وقبل من بعضهم شروطهم .

١- ومن أولئك الوفود : وفد ثقيف الذين كان على رأسهم عبد ياليل ابن عمرو ، ولما قدموا على النبي ﷺ ضرب لهم قبة في ناحية مسجده ثم طلبوا منه أشياء أبأها عليهم ، وأشياء أعطاهم إياها ، ومما طلبوا أن يعافهم النبي ﷺ من الصلاة فقال : « لا خير في دين لا صلاة فيه » .

٢- ووفد على رسول الله ﷺ وفد ضمام بن ثعلبة - من بني سعد - ولما دخل المسجد والرسول ﷺ بين أصحابه قال : أيكم ابن عبد المطلب ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : أنا ابن عبد المطلب .

قال : أمحمد ؟

قال : نعم .

قال : يا ابن عبد المطلب . . إني سائلك ومغلظ عليك في المسألة ، فلا تجدن عليّ في نفسك .

قال : لا أجد في نفسي ، فسل عما بدا لك .

قال : أنشدك بالله إلهك وإله من كان قبلك ، وإله من هو كائن بعدك : الله بعثك إلينا رسولاً ؟!

قال : اللهم نعم .

قال : أنشدك بالله إلهك وإله من كان قبلك ، وإله من هو كائن بعدك : الله أمرك أن تأمرنا أن نعبد وحده ولا نشرك به شيئاً ، وأن نخلع هذه الأنداد التي كان آبأؤنا يعبدون معه ؟

قال : اللهم نعم .

قال : فأنشدك بالله إلهك وإله من كان قبلك ، وإله من هو كائن بعدك : الله أمرك أن نصلي هذه الصلوات الخمس ؟

قال : اللهم نعم .

ثم ذكر الزكاة والصيام والحج وشرائع الإسلام كلها ، حتى إذا فرغ قال : فإنني أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله ، وسأؤدي الفرائض ، وأجتنب ما نهيتني عنه ، ثم لا أزيد ولا أنقص . ثم خرج حتى أتى قومه فما أمسى ذلك اليوم إلا وقد أسلموا جميعاً .

٣- ووفد على رسول الله ﷺ وفد هذيل من - بني سعد - وهو الذي قال : قدمت على رسول الله ﷺ في نفر من قومي فبايعناه ، ثم انصرفنا إلى رحالنا وقد خلفنا أصغرنا ، فبعث رسول الله ﷺ في طلبنا ، فأتى بنا إليه ، فتقدم صاحبنا فبايعه على الإسلام ، فقلنا : يا رسول الله ، إنه أصغرنا وخادمنا ، فقال : « أصغر القوم خادمهم ، بارك الله عليك » .

فكان - والله - خيرنا وأقرأنا بدعاء رسول الله ﷺ ثم أمره علينا ، فكان يؤمننا فرجعنا إلى قومنا فرزقهم الله الإسلام .

٤- ووفد على رسول الله ﷺ وفد صداء - من عرب اليمن - وكانوا خمسة عشر رجلاً ، فبايعوه على الإسلام ، ثم رجعوا إلى قومهم وفشا فيهم الإسلام .

٥- وقدم وفد صرد بن عبد الله الأزدي - في وفد - فأسلموا فأمره النبي عليه الصلاة والسلام على من أسلم من قومه ، وأمره أن يجاهد بمن أسلم من أهل الشرك - من قبائل اليمن - ففعل ، وقاتل قبائل العرب وانتصر عليهم .

٦- وقدم وفد دوس إلى الحج ، وسمع الطفيل الدوسي القرآن من النبي ﷺ حين كان يصلي عند الكعبة ، فمكث حتى فرغ فتبعه إلى البيت ، فطلب من النبي ﷺ أن يعرض عليه الإسلام ، فأسلم ، ثم رجع إلى قومه بخبر الإسلام ، فأبطل عليه قومه ، فجاء النبي ﷺ ، فقال : يا نبي الله ، قد غلبني

على دوس الزنا ، فادع الله عليهم ، فقال : « اللهم اهد دوساً » ثم قال : « ارجع إلى قومك فادعهم إلى الله وارفق بهم » ، فرجع فلم يزل يدعوهم حتى قدم على النبي بخير ثمانين بيتاً من دوس .

٧- جاء مالك بن الحويرث مع قومه - من بني ليث - فأقاموا عند النبي ﷺ عشرين ليلة يتعلمون الإسلام ، فلما رأى النبي ﷺ شوقهم إلى أهلهم ، قال : « ارجعوا إلى أهليكم فكونوا فيهم وعلموهم ، ومروهم ، وصلوا كما رأيتموني أصلي ، فإذا حضرت الصلاة فليؤذن لكم أحداكم ، وليؤمكم أكبركم »^(١) .

● ما يُستفاد من إسلام الوفود

يُستفاد من إسلام الوفود وسرعة رجوعهم إلى أهلهم لنشر دعوة الإسلام فيهم : أن النبي ﷺ لم يكن يحبس الوفود طويلاً حتى يحشو أدمغتهم بحذافير الشريعة ، بل كان يكفي بأن يعلمهم قواعد الإسلام والطهارة وبعض السور من القرآن ، ثم يطلق سراحهم إلى أهلهم ليدعو غيرهم .

هذا الذي يتفق مع التيسير في الدعوة والتبشير بها ، وعدم التنفير عنها .

وقد درج كثير من الدعاة على أن يستعملوا الأساليب الغليظة ، والعبارات الجافة الشديدة لحديث العهد بالإسلام ، حتى يخاف وينفر منه ، وهذا لا يجوز ، بل يجب عليهم أن ييسروا ولا يعسروا ، وأن يصبروا على جفاء بعض الناس المدعويين الذين في طباعهم الغلظة حتى يلينوا من طباعهم وجفوتهم ، وحتى يكونوا مثلاً أعلى في الإسلام .

● أثر مكارم الأخلاق في انتشار الإسلام

١- جاء في كتب السيرة أن رسول الله ﷺ غزا غزوة حنين ، وكان صفوان ابن أمية لا يزال كافراً ، فأعطاه النبي ﷺ مائة من النعم ، ثم مائة ، ثم مائة .

(١) متفق عليه ، ورواه الإمام أحمد والنسائي عن مالك بن الحويرث .

وقال صفوان : والله ما سمحت نفس أحد بمثل هذا العطاء إلا النبي ﷺ ،
ولقد أعطاني ما أعطاني وأنه لأبغض الناس إليّ ، فما زال يعطيني حتى أنه
لأحب الخلق إليّ . . أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله .

٢- جاء زيد بن سحنة اليهودي قبل إسلامه يتقاضى النبي عليه الصلاة والسلام
دينًا عليه ، ف جذب ثوبه عن منكبه وأخذ بمجامع ثيابه . وأغلظ له ، ثم قال :
إنكم يا بني عبد المطلب مطل ، فانتهره عمر وشد له في القول والنبي ﷺ
يبتسم ، فقال رسول الله : « أنا وهو كنا إلى غير هذا منك أخرج يا عمر ،
تأمرني بحسن القضاء وتأمره بحسن التقاضي » ، ثم قال : « لقد بقي من
أجله ثلاث » ، وأمر عمر أن يقضيه ما له ويزيده عشرين صاعاً لما روعه ،
فكان سبب إسلامه ، وقال : ما بقي من علامات النبوة شيء إلا وقد عرفتها
في وجه محمد ﷺ ، إلا اثنتين لم أخبرهما : يسبق حلمه جهله ، ولا يزيده
شدة الجهل إلا حلمًا ، فاخبرته بهذا ، فوجدته كما وصف .

٣- تصدى للنبي غورث بن الحارث ليفتك به ، ورسول الله عليه الصلاة
والسلام مستند تحت شجرة وحده قائلاً - والناس قائلون في غزوة ذات
الرقاع - ولم ينتبه رسول الله ﷺ إلا وهو قائم والسيف صلتا في يده ، فقال :
من يمنعك مني ؟ فقال : الله . فسقط السياف من يده ، فأخذه النبي ﷺ
وقال : من يمنعك مني ؟ قال : كن خير آخذ - فتركه وعفا عنه ، فجاء إلى
قومه ، فقال : جئكم من عند خير الناس ، فأسلم ودعا قومه إلى الإسلام .

● بقاء فريضة الجهاد إلى قيام الساعة

جاء في الأثر المروي عن أحد السلف : « الجهاد ماض منذ بعث الله نبيه إلى
أن يقاتل آخر أمته الدجال ، لا يبطله جور جائر ولا عدل عادل » .
وعن سيدنا أبي بكر رضي الله عنه قال : « ما ترك قوم الجهاد في سبيل الله
إلا ضربهم الله بالذل » .

غير أن الجهاد نوعان : جهاد فيه قتال ، وجهاد ليس فيه قتال ، أما الجهاد الذي فيه قتال فهو : ما تقدم وله شروطه وأسبابه وقواعده ، فلا يتم إلا بقيادة أمير يبيع على طاعة الله ورسوله .

أما الجهاد الذي ليس فيه قتال فهو : ما يستطيعه كل إنسان دون الرجوع فيه إلى أمير ، وهو أيضاً قسمان :

الجهاد بالنفس ، والجهاد بالمال ، كما هو مأخوذ من قوله تعالى : ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَذِلُّكُمْ عَلَىٰ تَجَرُّعِ تَنْجِيكُمْ مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ۖ تَوَمِّنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (الصف: ١٠، ١١) .

أما الجهاد بالمال فهو بذله للمجاهدين في سبيل الله ، بشراء الأسلحة لهم وتقديم كل ما يحتاجون إليه من لوازم الجهاد ، وإيقاف الرباط في ثغر من الثغور ، أو بذله لبناء المساجد التي يذكر فيه اسم الله ، وتقام فيها الصلاة ، أو بذله لبناء المعاهد والمدارس التي يتعلم فيها أمور الدين والدنيا، ونحو ذلك . أما الجهاد بالنفس ، فكما تقدم ، أو مجاهدة النفس والهوى والشيطان ، لحديث : « المجاهد من جاهد هواه »^(١) .

ولحديث : « رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر : جهاد النفس » .

ولكن المجاهدين من هذا الطراز إنما يدخلون في عداد القاعدين من المؤمنين كما في قوله تعالى : ﴿ لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (النساء: ٩٥) .

(١) ولحديث : « المجاهد من جاهد نفسه في الله » رواه الترمذي وابن حبان عن فضالة ابن عبيد .

ويقول معروف الكرخي - أحد أئمة الصوفية - : « ليس بمسلم من اهتدى في نفسه ، وقنع بذلك ، ولم يجاهد لينقل هداة إلى إنسان آخر في الحياة ، والولي الكامل من قام بواجبه حيال الأمة الإسلامية : مصلحاً أو مرشداً » .

ويقول السيد رشيد رضا في إحدى مقالاته : « إن في الصلاة لراحة ، وإن في العلم والذكر للذة ، ولكن ثوابهما قاصر على صاحبهما ، وثواب الجهاد متعدد لكل من ينتفع به ، والإنسان الكامل من يجمع بينهما » .

● فريضة بذل المال في سبيل الدعوة

المال قوام كل دعوة إلى فكرة أو عقيدة أو ديانة يدعى إليها الناس ، وكل دعوة إلى شيء يحمل عليه الجمهور ولم تكن تساند بالأموال فإنها لا تروج ولا يستجاب لها كما قال الشاعر :

رَأَيْتَ النَّاسَ قَدْ مَالُوا إِلَى مَنْ عِنْدَهُ مَالٌ
وَمَنْ لَا عِنْدَهُ مَالٌ فَعِنْدَهُ النَّاسُ قَدْ مَالُوا

فإن بذل الأموال من أجل نشر الدعوة أيسر طريقة سلمية ، وأقرب وسيلة فعالة لنشر تلك الدعوة ، ألا ترى النظريات الفلسفية أو السياسية أو الثقافية ، والأفكار والآراء والمذاهب كلها تروج بين الأفراد والجماعات ببذل الأموال الطائلة من أصحاب تلك النظريات والأفكار ، ومن حملة ألويتها إلى الناس .

● بذل النصارى لديانتهم

إن الديانة النصرانية المعروفة بقوة انتشارها وتغلغلها في سائر الأوساط لم تقم إلا على بذل الأموال لمن يدعى إليها ، فإن تلاميذ المسيح الأولين ، الذين أقاموا بناء الدعوة النصرانية ونشروها في العالم إنما كانوا يبذلون أقصى ما لديهم من الأموال في سبيل نشرها بشتى الوسائل .

وقد جاء نص ذلك في سفر الأعمال (في الإصحاح الرابع) في قوله : « وكان لجمهور الذين آمنوا قلب واحد ونفس واحدة ، ولم يكن أحد يقول إن شيئاً من أمواله له ، بل كان عندهم كل شيء مشتركاً . . »

وإذ لم يكن فيهم أحد محتاجاً ، لأن كل الذين كانوا أصحاب حقول أو بيوت كانوا يبيعونها ويأتون بأثمان المبيعات ، ويضعونها عند أرجل الرسل ، فكان يوزع على كل أحد كما يكون له احتياج .

ويوسف الذي دعى من الرسل برنابا الذي يترجم «ابن الوعظ» وهو لاوي قبرصي الجنس ، إذ كان له حقل باعه وأتى بالدرهم ووضعها عند أرجل الرسل .

«قلت» : وكان جزاء الذي باع ملكه وأخذ من الثمن شيئاً لنفسه كان جزاؤه الموت (كما في الإصحاح الخامس من السفر المذكور) : «ورجل اسمه حنانيا وامراته سفيرة باع ملكا واختلس من الثمن ، وامراته لها خبر ذلك ، وأتى بجزء ووضعها عند أرجل الرسل : فقال بطرس : يا حنانيا ، لماذا ملأ الشيطان قلبك لتكذب على الروح القدس ، وتختلس من ثمن الحقل ، أليس هو باق كما يبقى لك؟ ولما بيع ، ألم يكن في سلطانك ، فما بالك وضعت في قلبك هذا الأمر ، أنت لم تكذب على الناس ، بل على الله ، فلما سمع حنانيا هذا الكلام وقع ومات ، وصار خوف عظيم على جميع الذين سمعوا بذلك» .

«قلت» : ومن ثم ظل النصارى إلى اليوم يبذلون ولا يبخلون بما يملكون ، وكثيراً ما يوصون بجميع أموالهم ، أو بنصفها ، أو ثلثها لكنيستهم ، خصوصاً إذا لم يتركوا وارثاً يرثهم .

لذلك استطاعت الهيئات التبشيرية في كل قطر ، وفي كل بلد ، أن يؤسسوا المؤسسات الخيرية العظيمة لمساندة ديانتهم .

• الإنفاق في سبيل الإسلام

ولقد جعل الله الإنفاق في سبيل الدعوة إليه فريضة من فرائضه ، ووعد من أنفق في سبيله ثواباً ، وأنذر من أمسك عقاباً في الدنيا والآخرة ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَكُمْ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفِيعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (البقرة: ٢٥٤) .

﴿ وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (البقرة: ١٩٥) .

﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ يَوْمَ يُخْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنْزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾ (التوبة: ٣٤، ٣٥) .

ولقد قرر القرآن الكريم أن الدعوة لا تقوم إلا بالجهاد بالمال والنفس ، فحث على ذلك في كثير من الآيات ، منها قوله : ﴿ لَكِنَّ الرُّسُولَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (التوبة: ٨٨، ٨٩) .

﴿ يَتَأْتِيَا الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَذُكُم عَلَىٰ تَحِيْرَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ تُوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (الصف: ١٠، ١١) .

● إنفاق الرعيل الأول من الصحابة

امثالاً لهذه الأوامر الإلهية وضع الرعيل الأول من الصحابة جميع أموالهم تحت تصرف صاحب الدعوة سيدنا محمد ﷺ ، فأخبار سادتنا أبي بكر ، وعمر ، وعثمان ، وطلحة بن عبيد الله ، وعبد الرحمن بن عوف ، وأمثالهم معروفة ومشهورة في التاريخ .

وقد أنفق طلحة أمواله في غزوة حنين ، حتى وصف بـ « الجواد الفياض » ، ولما ندب رسول الله ﷺ إلى الصدقات في غزوة تبوك الموسومة بـ « جيش العسرة » جاء الصحابة بأموالهم ، وأول من جاء بماله منهم سيدنا أبو بكر الصديق ، جاء بماله كله ، فكان أربعين ألف درهم ، فقال له رسول الله : « هل أبقيت لأهلك شيئاً ؟ قال : أبقيت لهم الله ورسوله ، وجاء سيدنا عمر بنصف

ماله فسأله : « هل أبقيت شيئاً »؟ قال عمر : نصف مالي ، وجاء عبد الرحمن بمائتي أوقية ، وجهاز عثمان ثلث الجيش ، وتصدق عاصم بسبعين وسقا من تمر ، ولم يبق أحد من الصحابة له مال إلا أنفقه كله أو بعضه ، أو ثلثه .

ثم سار المسلمون على هذه السيرة في مختلف الأعصار والأمصار ، وأنفقوا أموالهم في سبيل الدعوة حتى استقامت وانتشرت .

أما في الرباط أو في بناء المساجد أو المدارس والزوايا ، وإيقاف الأوقاف والحبس لتكون موارد ثابتة تعتمد عليها الدعوة الإسلامية ، فأخبار « نظام الملك » في تأسيس المدارس النظامية مدونة في التاريخ ، وأخبار « صلاح الدين الأيوبي » كذلك مشهورة في مصر وسوريا ، فإن ملوك المسلمين السابقين ، ورؤساءهم الأولين ، وأثرياءهم الماضين ، قد أنفقوا أموالهم في سبيل تثبيت دعائم الإسلام في مختلف المجالات .

ولولا ما أنفقوا لما بلغت الدعوة حيث بلغت ، ولما بقيت المساجد عامرة في كل بلد من البلاد الإسلامية حتى اليوم ، ولما وجدت الأوقاف الإسلامية التي عظم شأنها حتى خصصت لها وزارة خاصة في كل دولة إسلامية أو عربية .

• الدعوة بحاجة إلى مزيد من البذل

ومع هذا كله ، فإن الدعوة الإسلامية في هذا العصر لا تزال بحاجة إلى مزيد من البذل الكثير من أثرياء المسلمين الذين وسع الله عليهم ، فإنهم وإن كانوا ينفقون ، فإن ما ينفقونه أقل مما يجب عليهم بالقياس إلى ما ينفقه أثرياء اليهود والنصارى لنصرة عقيدتهم وديانتهم في أمريكا وأوروبا ، حيث وضع أصحاب الملايين إمكاناتهم تحت تصرف الدعاية لعقيدتهم وديانتهم .

• دعوة الملوك ورؤساء الدول إلى الإسلام

لقد كان نبي الله إبراهيم أول من واجه الملوك الجبابرة ، ولكن بطريقة غير مباشرة ، ثم جاء نبي الله موسى ، وكان يواجه فرعون بالخوارق والمعجزات .

ولما جاء النبي محمد ﷺ واجه ملوك زمانه جميعاً ، ولم يقتصر على واحد منهم ، واخترع أسلوباً جديداً في الدعوة لم يسبق إليه ، ذلك هو : دعوة الملوك العظام بالمراسلة والسفارة ، فبدأ بأعظمهم شأنًا وأبهرهم مكانًا وهو كسرى فارس ، ثم بقيصر الروم ، وكانت رسائله إليهم تنطق بلهجات قوية رفيعة في كلمات وجيزة رهيبة .

دعا النبي ﷺ هذين الملكين ، وبلاد العرب كلها خاضعة لهما ، قسم خاضع لنفوذ فارس تحت الملوك المناذرة في الحيرة ، وقسم خاضع لسيطرة الروم تحت الملوك الغساسنة في الشام .

لم يخش النبي ﷺ ما يترتب على هذا الإقدام الجريء لو فشلت دعوته ، ولكنه متيقن بنجاح دعوته ، لأن الله الذي أرسله قد وعده بالنصر .

وفرعون الذي بعث الله إليه موسى عليه السلام ليس أعلى شأنًا من كسرى فارس ، ولا قيصر الروم ، لأنهما على رأس بلاد العرب وذبها .

ولكن فرعون الذي بعث الله إليه موسى لم يتحكم على مدين التي لا تبعد عن مصر أكثر من مسافة أسبوعين سيراً على الأقدام .

ومع ذلك اعتذر موسى لربه ، وقال : ﴿ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ۖ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ۖ ﴾ (الشعراء: ١٢-١٤) .

وحين أُرْسِلَ عيسى عليه السلام ، كانت بلاد فلسطين تحت حكم قيصر الروم ولما سأله اليهود عن طاعة قيصر ، قال لهم (كما يقول كتابهم) : « أعطوا ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله » .

هذا قول الخائف الذي يرهب جانب الملك العظيم الشأن يقسم العالم قسمين : قسم لله ، وقسم لقيصر ، إن صحت نسبه ذلك إلى عيسى عليه السلام^(١) .

(١) إن الرسائل كلها جاءت لتقول للعالم : إن الملك لله وحده ، وقد حدث أن مسيلمة الكذاب أُرْسِلَ إلى رسول الله ﷺ يقول : أما بعد ، فإن الأرض نصفها لي ونصفها لك . فرد عليه سيدنا رسول الله ﷺ بقوله : « أما بعد ، فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده » . وذلك عهدنا بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

فيأتي سيدنا محمد بن عبد الله ﷺ ويجترئ على كسرى وقيصر ويبعث إليهم الرسائل ليدعوهم إلى عبادة الله الذي له ملك السموات والأرض .

ولقد أخبر النبي ﷺ قومه في غزوة الأحزاب حين أخذ المعول من سلمان الفارسي وضرب به الحجر فبرقت منها بارقة فكبر رسول الله ﷺ وكبر المسلمون ، ثم ضرب فبرقت فكبر وكبروا ، ثم ضرب فبرقت فكبر وكبروا ، فقال ﷺ : « أضاء لي في الأرض قصور الحيرة ومدائن كسرى . كأناب الكلاب ، فأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها ، وأضاء لي في الثانية قصور الحمر من أرض الروم ، فأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها ، وأضاء لي في الثالثة قصور صنعاء ، فأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها » .

بهذا يتقن رسول الله ﷺ أنه سيغلب أولئك الملوك في عقر ديارهم ويقضي على آثارهم ، لذلك بدأ يرسلهم .

● رسائل النبي ﷺ - رسالته إلى هرقل ملك الروم

« بسم الله الرحمن الرحيم ،

من محمد رسول الله ﷺ إلى هرقل عظيم الروم ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد . .

فإني أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين ، ﴿ يَتَأْهَلُ الْكَتَبِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٌ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ إِلَّا نَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ (آل عمران: ٦٤) .

● كتابه إلى كسرى ملك فارس

« بسم الله الرحمن الرحيم ،

من محمد رسول الله ﷺ إلى كسرى عظيم فارس ، سلام على من اتبع الهدى وأمن بالله ورسوله ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله . .

أدعوك بدعاية الإسلام ، فإنني أنا رسول الله إلى الناس كافة ، لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين ، أسلم تسلم فإن أبيت فعليك إثم المجوس» ..

● كتابه إلى المقوقس ملك مصر والإسكندرية

« بسم الله الرحمن الرحيم ،

من محمد عبد الله ورسوله إلى المقوقس عظيم القبط : سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد . .

فإنني أدعوك بدعاية الإسلام : أسلم تسلم ، وأسلم يؤتك الله أجره مرتين ، فإن توليت فإن عليك إثم أهل القبط : ﴿ يَتَأْهَلُ الْكِتَابُ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَمْ إِلَّا تَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾

(آل عمران: ٦٤) إلخ .

● كتابه إلى النجاشي ملك الحبشة

« بسم الله الرحمن الرحيم ،

من محمد رسول الله ﷺ إلى النجاشي ملك الحبشة . . سلم أنت .

فإنني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن ، وأشهد أن عيسى ابن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة ، فحملت بعبسى ، خلقه الله من روحه ، ونفخه ، كما خلق آدم بيده .

إنني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له ، والموالاة على طاعته ، وأن تتبعني وتؤمن بالذي جاءني ، فإنني رسول الله ، وإنني أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل ، وقد بلغت ونصحت ، فاقبلوا نصيحتي ، والسلام على من اتبع الهدى .

• ما يُستفاد من رسائل الملوك :

يلاحظ القارئ اختلاف عبارات الرسائل إلى أهل الكتاب وإلى المجوس ، كما يلاحظ أن عبارات رسالة النجاشي ألطف وأخف لما سبق به من عطفه على المسلمين في بلاده ، وقد قابل بعض هؤلاء الملوك هذه الرسائل بالاحترام ، كملك الحبشة ، وعظيم مصر ، وأمير البحرين . واستكبر البعض الآخر ، كعظيم الفرس الذي مزق رسالة النبي ﷺ وبعث إلى عامله من يأتيه بهذا العربي الذي اجترأ عليه ، ولما أتوا النبي ﷺ قال لهم : « إن كسرى قد قُتِل ، وإن الإسلام سيبلغ ما بلغ كسرى ، وينتهي إلى الخف والحافر » .

ولم يمض على هذه الحادثة ربع قرن من الزمان ، حتى سقطت هذه الدول كلها تحت سنانك خيل المسلمين . ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾

(الأنعام: ١١٥) .

و ﴿ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ (الزمر: ٧١) .

* * *